"ابنة القمر"

تحت أضواء القمر عند ملتقى مدينة "سورا" مع البحر، وعلى مرمى البصر جبال الريح الست، يرتفع لحن صوتها اللطيف ممزوج بدموعها الساخنة، تغني "لونا" مرتدية ثوب إحدادها الأسود، تغني وكأنما لا تملك سوى الغناء، وكأن لحنها يخفف وطأة الألم على قلبها الصغير.

دع الليل ينطوي ويخفي المسير.

وضع في ثنايا الحلم الضرير.

دع الغيث يهطل على القلب الصغير.

وانس ان الكون بات قاسٍ مرير.

صغيري داو الفؤاد الكسير.

كل الأماني حتماً تصير.

مع اول شعاع شمس تستيقظ "لونا" لتبدأ يوم عمل شاق جديد، ترتدي فستان بسيط زاهي اللون، وترسم على وجهها ابتسامة رقيقة بعد أن جدلت شعرها الأسود الذي يكاد يلمع باللون الأحمر القاتم، مع عيناها ذات اللون الرمادي، تضفي لجمالها البسيط رونقاً يكاد يخلو من أي شوائب، تحمل سلتها المليئة بالمشغولات التي تصنعها من الأصداف بشكل أساسي وتخرج للمدينة لتجني قوت يومها.

"سورا" المدينة التي لا تنام، المكان الوحيد الذي قد ترى فيه كل أصناف البشر تتحرك دونما توقف، رغم الطبقية التي قد توجد غالبا، الا أن المدينة بحاجة الى الجميع لتعج بتلك الحيوية المعتاد، حتى بعد الغروب تتحول الى ملهى لمن لا يجدون ما يلهيهم، ومكان عمل لمن لا يجد عمل يؤويه نهاراً.
تتحرك فتاتنا ذات أعوامها السبعة عشر بين شوارع المدينة، فرغم بساطة عملها الا أنه يلقى شعبية بين نساء جميع الطبقات، أما للرجال فهي أفضل هدية قد يعطيها للمرأة التي يحب، حيث إنه قد أشيع أن من يهدي احداهن أحد هذه المشغولات فإنها تبقى الى جواره طوال العمر.

توشك الشمس على الغروب وقد صارت السماء ومياه البحر وكأنما قد اصطبغا بدماء الشمس، تقف في مكانها المعتاد في أقصى مكان في المدينة وقد أعادت ارتداء ثوب احدادها ومغطية وجهها.
يرتفع لحن صوتها الرنان، وتمتزج كلماتها مع دموعها المسالة، يجتمع الناس حولها كما يجتمع حول النار الهشيم، أنى لصوت أن يحمل كل هذه الألم، وكأن سحر مذاب في ألحانها، وكأن الكون كلها يسكن لسماعها.
"كأنها رغم الحرب التي تدور داخلها فهي هادئة بطريقتها المربكة. "

ذو الحادي والعشرون عاماً صاحب الشعر البني المسدل، والعينين الزرقاء بارعة الجمال، ينطلق "شيرو" رفقة فارسه الوفي ملتحفان السواد نحو مدينة "سورا"، وقد أوشكت الشمس أن تغرب رغبة في اللهو كحال معظم النبلاء.

دون وجهة محددة من ملهى لمطعم، ومن مقهى للسير في الطرقات دونما هدف، وكأن دنياهم تخلو من الجد والعمل، وقبل عودتهما في احدى الليالي المقمرة، يجذب "شيرو" لحن صوت رقيق، وكأن سحر قد تملكه، سلبه عقله لثواني رغم يقظته.

فور إفاقته أدرك رحيل صاحبة الصوت، لم يعط بالاً لِلَحن قد يكثر، أو لفتاة لربما قد بيعت لأحدهم منذ زمن، لكن أنى له أن يتجاهل ذاك السحر الذي أسره وهو من أسياد السحر في قومه.

ليالٍ تتلوها ليال وصاحبنا لم ينس يوماً ما تملكه، ليعزم قراره بسماعه من جديد وان كلف ذاك الكثير.

ومن جديد يتوقف ويسلب عقله، من ذي التي حوى صوتها كل ذلك السحر، ماذا تفعل لتسلبه عقله، هل للتوقيت دخل في تأثيره، لربما فهو لم يستمع لصوتها سوى حينما يبتلع الظلام المكان.

على مقربة منها وقف، أعطى فارسه قطعة ذهبية وأخبره أن يعطيها لها قبل ان تختفي من جديد، فتقدم وناولها، ولكنها أبت الا ان يأخذ قطعة من مشغولاتها فغنائها لا يكلف ذهباً.

عاد وبيده أسورة من الصدف، لوهلة ظن أن الأصداف هي ما تعطيها سحر صوتها، الى أن أدرك اختفائها من جديد.

دع الليل ينطوي ويخفي المسير.

وضع في ثنايا الحلم الضرير.

دع الغيث يهطل على القلب الصغير.

" لم أتمكن من إنهاء الأغنية إذ أنى قد وجت ولأول مرة تلك العينان التي لطالما حدقت بي، في حلمي ... في أوهامي ... وأظنني أراها في كل مكان، لربما ظننتني أحلم ان لم أر باق الأعين التي تكاد تلتهمني".

هربت خوفاً من أعينهم من جديد، لكنها تمنت لأول مرة لو أنها تبقت علها تمعن النظر مرة ومرات أخرى بتلك العينان.

تمر الأيام وكلاهما يبحثان عن بعضهما، وكأن المدينة الواسعة قد ابتلعتهما نهاراً، فيلتقيا غروباً تحت سماء الليل، لمدة أغنية واحدة لحنها همسات الرياح وصوت الموج المضطرب.

"أكاد أجزم أنها تهرب فور رؤيتها لي، وأخشى أن أصدق أنها وهم جميل ... وهم لا تطاله يداي ... لربما لو لم تعم عيناي لكنت وجدتها ... لربما حينها أتمكن من معرفة لماذا ... لماذا صوتها الوحيد من يسلب عقلي ... لماذا أعرف أنها تختلف عن البقية ... لماذا أأبى سوي أن أستمع لها دوم الاقدام على غيره".

" لماذا أهرب منه .... أخشى أني لا أستطيع الفرار من أسر عيناه .... لكن لا يمكنني الاقتراب منه ... ماذا ان كان وهماً ... وهم جميل أسرني عن قسوة هذا العالم ... هل تراني يوما أمسك يديه".

تتحرك قدماها في جميع شوارع "سورا"، من الشمال للجنوب ومن الشرق حتى الغرب، حتى يأتي وقت الغروب، الوقت الذي يرحل معه كل شيء، الشمس والأمل، الحياة والرحمة، البراءة والجمال، وكأن الليل ينسل على أبشع الجرائم تحت ستار جماله البديع، حينها تخرج من ثوب لباقتها ويرتفع صوتها بين الجميع، لربما تتوارى من أعين البشر خلف ردائها لكن كيف تتوارى من أعين ذاتها، من أعين الماضي، من أعين غير البشر.

يتحرك رفقة فارسه في الشوارع، لربما هو فارس لكنه أشبه بعينه التي ذهب ضوئها، يبحث معه عل أحدهما يتمكن من إيجاد من تكون تلك الحورية التي لا يعلم عنها غير لحن صوتها الرنان، أي دليل عنها لا يملك سوى صوتها ولا أحد يعرف هوية من تغنى ليلاً.

ويكأن كلاهما يستمعان لهمسات تجرهما جراً لقدرهما، أحدهما يركض خلف همسات صوت ما، والأخرى تبحث عن نظرات عينان أسرتها.

- لونا ... هلا أصبحت مرافقة لي؟

" لا أدري ان كان هذا واقعاً أم محض خيال ... فقط صباحاً قد هربت من أحدهم خوفاً من بطشه، والآن هل حقاً يمكنني العمل دون القلق من طمع الناس في".

- وما الذي سأجنيه من مرافقتك ... والى متى أفعل؟
- لا أطلب الكثير، فقط حتى أتمكن من ايجاد المكان المناسب لافتتاح متجري ... وإن كنت أطمع أن تعملي فيه نيابة عني، فكما ترين أنا قد فقدت ضوء عيني.

صدمت "لونا" من كلماته، طوال هذا الوقت لم تلحظ كونه لا يبصر، فعينيه مصوبة تجاه عيناها ويكأنه لا يجد سواها.

- أعتذر لم أدرك هذا ... لا بأس عندي في العمل طالما لا يتجاوز حد استطاعتي.
- أقدر لكِ هذا حقاً، وفي المقابل سأعطيكِ أربع عشرة قطعة ذهبية في الأسبوع، وحين يأتي موعد الافتتاح سنتفق سوياً على المبلغ.
- أوليس هذا كثيراً بعض الشيء ... بإمكانك إيجاد مرافقين وعمال أكثر طاعة وبسعر أقل من هذا ... إلا إذا تجاوز الأمر حدود المرافقة.

صمت "شيرو" فكلماتها صحيحة، لربما لم يجد فكرة أفضل ليكون الى جوارها، وها هو قد جعلها تشك في مصداقيته.

- لن يتجاوز الأمر المرافقة ... وإن كرهتين يوماً أحد طلباتي يمكنكِ فقط تجاهلها أو تركي ان رغبتي ... دون أي ضرر قد يلحق بكِ.

وافقت على طلبه فمن أين لها بأفضل منه، مال جيد لتأمين معيشة مناسبة، شخص ظاهره الطيبة ولن ينظر لها على كونها جسد لا يصلح سوى للمتعة.

في صباح ذاك اليوم ...

- سيدي شيرو .... لقد وجد ما تبحث عنه.
- حقاً ... أخبرني سريعاً.
- حسناً ... هي فتاة شابة في الثامنة عشر تقريباً، تدعى لونا ... تعمل في صنع المشغولات اليدوية وبيعها، ومن مراقبتي لها فهي صاحبة ذاك الصوت.
- ذاك فقط ... حسناً، رغم قلة المعلومات فهي أفضل من عدمها ... أتعلم سبب عملها ذلك ... او إن كان لديها شخص يرعاها.
- فتاة في ذلك العمر تعمل بتلك الصنعة، اما انها بالكاد تجنى قوت يومها من ذلك العمل ... أو أن أحدهم يرغمها عليه.
- أنت محق، يبدو أن مرافقتي لك كانت تعيقك وحسب ... أحسنت أنت لا تخيب ظني أبداً.
- هذا شرف لي يا سيدي.
- استعد لنجدها اليوم ... يجب أن أحادثها قريباً.
- بأمرك سيدي.

في أحد المطاعم في مركز المدينة تدخل "لونا".

- مساء الخير سيدي ... قد قيل لي أنك تبحث عن عمال لتنظيف المطبخ ... هل أجد لي مكان بينهم.

نظرة من رجل بدا الشيب على محياه تفحصتها من رأسها حتى أخمص قدميها، بثت في قلبها الرعب، وأجابها بصوت لا يخلو من الخبث.

- بالطبع لدينا مكان دائماً لجميلة مثلكِ، ولكن ما رأيك أن تعملي في خدمة العملاء ... سيكون لكِ مستقبل وقد تتمكنين من اصطياد أحدهم.
- أشكرك سيدي على عرضك ... لكن أظن أنه عمل لا يناسبني ... شكراً على وقتك.

همت بالمغادرة والتوتر يأكل من قلبها، ليمسكها من معصمها حتى كاد يخلع، وعلى محياه نظرة لا تبشر بأي خير.

- لا أظن أنكِ ستجدين عملاً أفضل من هنا، لا تقلقي يمكننا إرضائكِ.

انتزعت يدها من قبضته حتى كادت تتمزق، وخرجت مسرعة قبل أن يقبض عليها من جديد، بينما يلقي الآخر السباب عليها علها تخضع له، لكن هيهات.

مسحت الدمع عن عينها قبل أن يلاحظها أحد، واستمرت في طريقها فشخص كهذا لا يمضي يوم دون أن تقابل مثله.

اصطدمت دون وعي بأحدهم لتسقط أرضاً، فمد الآخر يده معتذراً لعدم رؤيته لها.

لم تلقِ له بالاً وهمت بالمغادر ليستوقفها.
- أنتِ لونا أليس كذلك.

أومأت برأسها ونظرت له لتجد أنه هو، ذاك الذي تبحث عنه بين الحشود.
- هل لنا بالحديث لدقائق ... أحتاجك في عمل ما، ان قبلتي سأعطيكِ أجراً يرضيكِ.

وافقت مبدئياً على عرضه، ليقودها تجاه أحد المطاعم المطلة على البحر مباشرة.

- إذا آنسة لونا ... أتقبلين أن تكوني مرافقتي؟

وكأن القدر قادهما للقاء، ليخبرها بأنه بعد كل شدة سيأتيها حتماً ما يرضي قلبها ويسعدها، وليخبره أنه حتماً قد يوجد أمل يرسم له طريق يسعى فيه.

"مرحباً" تنطلق من بين شفتيها اللاهثتين، بينما تقف محاولة التقاط أنفاسها المتقطعة وتعتذر لتأخرها.

- لا بأس فلقد وصلت لتوي.

جالت ببصرها لتبحث عن مرافقه الذي قد رأته آخر مرة فلم تجده.

- لقد أخبرته أن يرحل ويأتيني في نهاية اليوم.

- اذاً من أين نبدأ ... نحن الآن على بعد شارعين من مركز المدينة ... هل نتجه للمركز أم أن لديك رغبات أخرى سيدي.

- دعينا نتوجه للمركز سيكون أفضل لبحثنا.

مد يده تجاهها، فنظرت الى يده الممتدة والى كفيها المرتعشتين، هربت الأحرف من لسانها، فكيف ترفض امساك يده وهو كفيف لا يسير بمفرده، أدرك توترها فضم يده وأردف:

- يمكنك السير أمامي فطالما تتكلمين يمكنني اتباعك ... فقط لا تبتعدي كثيراً عني في الزحام.

- بالتأكيد.

ابتهجت لرده وقد أدركت في صميمها انه ليس رجلاً سيء، تابعت حديثها وهو يجيبها قليلاً، وكأنه يرغب في سماع صوتها، حتى بدأ الجو يزدحم، لتستدير "لونا" ولا تجده وينتابها الفزع.

الى جوار أحد الجدران استند "شيرو" منتظراً أن تنتبه "لونا" لعدم وجوده، ولكيلا يختلط مع الزحام فيصعب لقائهما، لتأتيه مع أنفاسها المتقطعة، وعينيها الدامعتين معتذرة على غفلتها، وقد قامت بفك شريط شعرها الطويل.

- ان كان لا بأس هل يمكنني ربط يدك بيدي.

مد يمناه تجاهها وبرفق قامت "لونا" بربط طرف الشريط بيده، كما فعلت المثل مع يدها، ليعقد قلبه كما عقدت يده.
ارتسمت ابتسامة على شفتيه وحثها على المضي قدماً، وبين الزحام تقف شاردة أمام أحد الأماكن.

- أين نحن الآن ...
تفيق على صوته، لتجيب بصوت يملئه الحنين:

- انها المكتبة، المكتبة الرئيسية هنا ...
- ما رأيكِ بأخذ استراحة لبعض الوقت ...
- لا يسمح لي بالدخول ...

أجابت بحزن يملئ قلبها وكيانها.

- لا تقلقي ... لندخل سوية ...

مد يده تجاهها لتمسك بأطراف أكمامه بتردد، وتتقدم معه نحو المدخل، ينبض قلبها بعنف، وأخيراً بعد طول انتظار يمكن لها ان تدخل، ان ترى الكتب والكلمات، أن ترضي عقلها وروحها.

تخطت البوابة الرئيسية وتوجهها للداخل، وأمام ناظريهما رجل اوقفها عن الدخول.

- الم اخبركِ مئات المرات غير مرحب بوجودكِ هنا.

ابتلعت آمالها بأسى، ليقف "شيرو" حاجزاً بينهما.

- هذه ضيقتي ولا أظن أنك ستقوم بطردي من هنا .... جهز لي غرفة خاصة .... واشتراك خاص للأنسة.

تحرك الرجل بصمت ليحضر بيده مفتاح وبطاقة لينا ولهما "لونا".
بتردد تلمسها وكأنه حلم تخشى استيقاظها منه، وها هو بيدها تمسكه، تصريح خاص لها للدخول دون أن يقف أحد دون حلمها، وما أحلاه من حلم.

تقدم "شيرو" وخلفه "لونا" وهي تنظر للمكان بلهفة وشوق، أخبرها بعناوين بعض الكتب.

- هل لي أن أختار أحد الروايات.

بابتسامة أومأ رأسه، لتذهب لاختيار الكتاب وتلك الكتب التي أخبرها بها، وتفتح باب تلك الغرفة.
طاولة صغيرة، كرسيين، أريكة، أرفف وشرفة مطلة على جمال البحر.

بدأت بقراءة تلك الرواية "هجينة الدم" بصوت مرتفع يسمعها به، تلتمس الأحرف وكأنها تحتضنها، تبتسم للحظات ويرتجف صوتها بأخرى.

- أشرقت الشمس ... قد كان أجمل شروق رأيته ... وقد كان الأخير ...

مسحت بكفها ما فر من عينها من عبرات، وبصوت مبلل بالدموع:

- لا أدري كيف لنهاية حزينة أن تحوي كل هذه السعادة ... لو أنهما فقط قد بقيا سويا لفترة أطول ... لو أن نهايتهما معاً كانت أكثر سعادة .... لربما كانت لتصبح البطلة أكثر رضا، ولكن .... هل يمكن أن تحوي الحياة سعادة كتلك..

- ولم لا تفعل ... ان الحياة تحوي فرص لا تحصى ... ولكن من يغتنمها ومن يتمسك بها ... لكن فرصة أن تجد حباً يشبه روحك، يرضا بك وبنفسه ... لربما لا تأتي ... ان الحياة حقاً لقاسية على قلوبنا.

ابتسمت بعد أن وضعت الكتاب جانباً:

- محق ... من الذي سيتمسك بأحدهم وهو لا يمسك بنفسه حتى.

تمضي الأيام ويتوالى ترددهم على تلك المكتبة، خلف الأرفف الممتلئة بالكتب، وبنسيم البحر المالح، تستقر قلوبهم، وتأوي لبعضها، وكأن كل منهما قد وجد ما يألفه، هو يستمع لصوتها الذي قد أسره، بينما تسترق هي نظرات لعيناه الدافئة.

ماذا ان كانت المسافة بينهما أقرب، لا تحكمها طبقات المجتمع، ولا يقف الفقر أو الاحتياج حائلاً بينهما.

- هل سمعتِ يوما حكاية "ابنة القمر".

في أحد الأيام، وتحت أضواء القمر تولد فتاة لأحد الأزواج، ولحسنها لقبها الناس "ابنة القمر"، تلك الجميلة التي تربت على شواطئ البحر، ويزداد تعلقها يوما بعد يوم بالغناء تحت أضواء القمر.

لكن هل تحلو الحياة للجميع!!

يقال إنه كان لها صديق غاب نور الحياة عن عيناه، وكأنهما قطعتان من القمر فقدا بريقهما، فكانت تهدي له الحياة وتصفها له في أغنياتها، وحبها للغناء ما هو إلا لأن ذلك الصديق عزيز على قلبها.

تكبر الفتاة وتزداد حسن على حسن، ويكثر من حولها خبثاء النفوس، وسوء النية لا يخلو من الجشع، جشع لامتلاك تلك الفاتنة، بوجه وجسد تحسد عليه، أني لها الهرب من أعين البشر.

خاف الأبوين على طفلتهما فحبساها عما تعلقت به، ورغم قسوتهما في التعامل؛ إلا أنها أصلح طريقة لحماية طفلتهما البريئة.

أطاعت الفتاة رغم كرهها، فمن في العالم يصلحها إن لم يفعل أبواها، وتحت أضواء القمر المتسللة من خلف زجاج نافذتها، تسترق نظراتها تجاه قمرها المحبب، وتغني بهمس لتروي عطش فؤادها.

طال حبسها وزاد معه الشوق، وكانت الأجواء لا تصفو لأحد حينها، كثرت العواصف، وهاجت مياه البحر، وكأنها تعترض على حبس صغيرتهم.

وفي أحد الأيام بعد أن انسدل الليل بظلامه، عصفت الرياح حتى اقتلعت الأشجار والمنازل، وارتفعت أمواج البحر وكأنما قررت ابتلاع المدينة ومن بها.

خرج الجميع من منازلهم خوفاً من بطش الطبيعة بهم، بعيداً عن شواطئ البحر، ليحتموا بمكان ما، لكن ليس للجميع مهرب.

تسير وحيدة تجاه الشاطئ بعيداً عن البشر والمباني، وكأن النسيم يسوقها لمأمنها، وتحت شعاع من ضوء القمر وكأنه خلق ليضيء لها وحدها تغني، تغني للنسيم والأمواج والقمر، تغني لصديقها وأحبتها، تغني لروحها الحبيسة.

حينما هدأت الريح والأمواج، كانت قد اختفت الفتاة، لم يعد لها أثر وكأنها لم تولد يوم، غير صوت غنائها الذي يحمله نسيم الليل.

يقال إن رجال الريح، ساكني قمم الجبال هم من حملوها في تلك الليلة العاصفة، فقط لتكون أميرة لهم تسكنهم بصوتها العذب، ويحمل النسيم صوتها ليسكن العالم، ويقال انها لازالت تغني لصديقها عله يوماً يرى جمال العالم حينما تعود عيناه للحياة.

- ما رأيك .... أتظنين أن هذه القصة قد حصلت بالفعل ... أم أنها من وحي الخيال.

كانت "لونا" فقط تائهة تنظر لعينيه، وقد أهداها صوته طمأنينة غريبة، وكأنه يحمل الأمان بين طياته، ومع تلك القصة كانت كطفلة تستمع لحكايات تأخذها بعيداً عن الواقع.

- أظن أن صوتك لطيف ... هل حاولت يوماً الغناء.

صمت لوهلة ثم أردف:
- حاولت ... لكن لا أظن أن صوتي سيكون بجمال صوتك.

انتبهت لكلماتها بعد أن رأت وجه "شيرو" وقد بات أحمر خجل، لتدرك أنها قالت فقط ما كانت تفكر فيه، وكأن أفكارها ومشاعرها تتحرر أمام عيناه، تخجل وتقطع الصمت الذي حل عليهما:

- أظن أنه ممكن طالما هناك سحر في هذا العالم.
- هل ربما يكون رجال الريح فقط سحرة؟

لربما ... لربما تحمل تلك القصة السحر بين طياتها، وربما ذلك السحر فقط آتٍ من عينيه، أو ربما آتٍ من صوتها، لا أحد يدري، ولا حتى القمر وهو يتلصص بنظراته على الجميع، وهم نيام كانوا أم قد ألهتهم الحياة عن الغوص في عالم الأحلام.

تمر الأيام وقد غاب "شيرو" عن اللقاء المعتاد بينهما، وفي تلك الأيام القليلة، يلتهب في قلبيهما ما لا تحمد عقباه، شوق قد غلب عليهما، وشعور أسر تفكير كل منهما عن العالم، حب ... اشتياق ... إعجاب ... أو اعتياد ربما.

تزور "لونا" غرفتهم المخصصة في المكتبة، لتحاول شغل تفكيرها عن مشاعرها المضطربة، يوماً بعد يوم ومشاعرها قد باتت واضحة، قد وقعت لعيناه، وقعت وما من أحد ليمد يده لينتشلها من بحر الوهم الذي أغرقها عميقاً، أي حب قد يسعدها والمجتمع يحول دون اجتماعهما في زواج، لربما يطلبها أن تكون عشيقته إن أحبها لكن هيهات، أن تقتل نفسها أهون عليها من العيش متوارية خائفة.

وفي المقابل يقف "شيرو" داخل غرفته وقد أدميت يداه، معصوب العينان، يعض على أصابعه الندم على ما حصل، لم يعد يملك قلبه، قد خسره أمام رقتها، خجلها، صوتها، وبراءتها تلك، وكأنها طفلة وهل يكره أحدهم طفلة رقيقة!،ما كان عليه أن يطاوع نفسه من البداية ويحادثها، ما كان عليه أن يقربها ويستمع لكلماتها، أحبها، لكن المجتمع يأبى اجتماعها بشكل يناسبها ويليق بقلبها، هي أكثر من سيتألم؛ وهو يأبى أدنى أذى لها، ولكن ما عساه يفعل أمام قلبه الجانح.

بعد أيام يقف "شيرو" أمام غرفتهم في المكتبة، ينبض قلبه بعنف، والأفكار تتأرجح في عقله، عزم قراره بأن يضعها في مكان يليق بها، حتى وان خسر كل شيء؛ لن يخسر قلبها أو يؤذيها، يفتح الباب برفق ليجدها قد غابت بخيالها أمام أحد الكتب، بوجه شاحب ونظرات مبعثرة؛ وها قد بعثرت أفكاره بلحظات.

- مرحباً ... لونا ... أعتذر لغيابي هذه الأيام دون إنذار.

أحرفه مبعثرة، أفكاره ونبضاته، لتجيبه بصوت مكتوم:
- مرحباً بعودتك ... لا بأس فقد كنت أشغل وقتي ببعض القراءة.

ابتلع كلماته بقلق، يخشى من صوتها الرفض، ويخشى من تردده أن تفوته ويسبقه أحدهم لها:

- أردت أن أحادثكِ بأمر مهم ... أو هو مهم لي لكن ... أرجو أن تستمعي لي حتى النهاية.

أطرقت سمعها باهتمام وقلق، لربما يطلب الغاء العقد بينهما، أو ربما يخبرها أنه لم يعد بحاجتها.

- في البداية أردت اخبارك أنه في الأيام الماضية قد كنت أجري بعض العمليات لمحاولة استعادة بصري ... وأردت أن تكوني أول من أرى لذا أتسمحين لي بخلع هذه العصبة.

أومأت برأسها، ليخلع العصبة عن عيناه، تتضح الألوان ببطء وتتضح ملامحها التي قد غابت عنه طوال هذه الفترة.

" انها جميلة بحق ... ساحرة ليس فقط صوتها وحسب ... حتى ملامحها القلقة لم تنقص من جمالها شيء ... بأي ذنب أعاقب عليه لأقع في حبكِ ... بأي ذنب يضعني على ذلك البعد منك ... آهٍ على قلبي".

" لاتزال عيناه كما هي ... آسرة رغم حدتها ... وأخيراً عاد الضوء لها ... حتى ان عنى ذلك أنك لم تعد بحاجتي ... مبارك لك شفاؤك ... وعزاء لقلبي على فراقك".

- شيء أخير أريد إخبارك به ... لا أقصد به ضغطاً عليكِ ... لكنه فقط لأجلي.

- أسمعك ... فقط أخبرني.

دوماً ما تضعنا الحياة على خيط رفيع، تختبرنا ومن تحتنا نيران المجتمع، أنضع كل شيء جانباً ونفعل ما نريد رغم الضغوط حولنا، أم فقط نلجأ للحل الأكثر سلمية ونخضع للمجتمع ونرمي مشاعرنا وأفكارنا خارج نافذة الواقع.

ألا يمكننا فقط أن نجد حلاً يرضي كل الأطراف؟؟

دموع تنهمر من عيناها، وترتجف شفتاها ويديها، قد يصبح الوهم حقيقة، وقد تصبح الأمنيات واقع.

- آسفة .... أنا آسفة لكن فقط لم أتوقع ... لم أتوقع أن يجبر قلبي بهذا الشكل ... أنا فقط.

مد يده برفق ليمسح دمعاتها، حتى في بكائها، الرقة لا تفارقها، لم يتوقع كلاهما أن ترضيهما الحياة.

جلس على ركبته وعيناه تجاه عيناها، ابتسامة على شفتيه تعبر عن مدى رضاه:

- من دقائق فقط كنت أعد نفسي للفراق ... ولأيام كنت أعد نفسي لرفضكِ لي ... أدرك أن اجتماعنا سوياً يرفضه المجتمع ... لكن أعدك ... ووعد السحرة قيد عليهم ... لن يكون اجتماعنا سراً ... اما أن يقبل الجميع زواجنا علناً ... أو تباً للجميع حتى ترضي.

ابتسمت، وكأنه قد أدرك مخاوفها، ابتسمت لإدراكها أن من يحبها لن يرضى أبداً بأذاها، حتى وإن كان هذا يعني أن يتمزق قلبه دون عنها.

- سأحب دوماً أن أحارب العالم إلى جوار من يحميني منه.

- اذاً سيدتي الجميلة ... أتقبلين مني هذه الهدية ... كإعلان لخطبتنا للعالم ولقلبي.

وكما يقال " السكوت علامة على الرضا"، كانت ابتسامتها الصامتة علامة على رضاها، ليخرج من مكان ما علبة مزخرفة، وبالداخل خاتمان من الفضة الخالصة، ارتدى كل منهما واحد، "لونا" لها خاتم ذو نقش القمر، و "شيرو" خاتم ذو نقش الشمس.

- يرمز القمر للجمال والرقة ... أما بالنسبة لي فهو مرشد بين ظلام الليل مثلك تماماً ... كنتِ النور الذي يرشدني في ضياعي ... لذا هل تسمحين لي أن أكون شمساً لكِ ... أمدك بالقوة وأحميكِ ... أكون لكِ أمان كما أنت مأمن لي ...

- قبلت يا سيدي ... يا عزيز روحي ومنقذي ... قد لا تدري لكن وجودك في حياتي قد أنقذني من الكثير ولن أرفض قلباً قد ارتضاه قلبي.

قد لا يجتمع الشمس والقمر، لكن وجودهما مكمل لبعضهما، فلا ضوء للقمر دون وجود الشمس، حتى وإن تغزل الناس بالقمر رغم احتراق الشمس لأجلهم.

- هل تسمحين أن ترافقيني لمكان ما.

مد يده لها لتمسك يده لأول مرة، فشعريرة لطيفة تسري بجسديهما، وفرحة تعتري كلاهما، يرتفع ضباب أبيض حولهما وبرودة تحيط المكان.

بلحظة تختفي الجدران، تختفي الكتب ويختفي الأثاث، ويظهر سحاب على مرمى البصر، اصطبغت السماء والسحاب والبحر باللون الأحمر، وكأن مجرماً قتل الشمس وأخفى جثتها على مياه البحر، أين قد يكون الجمال إن لم يكن هنا، ومتى قد يرى إن لم يكن الآن.

غروب وبحر ورفيق للعمر الى الجوار، لهفة تشفي الروح وسعادة تروي القلب، ينثر "شيرو" شيء لامع على السحاب وينزل ببطيء حتى لامست أقدامهم السحاب، افترشوه وجلسوا، والدهشة في عينا "لونا"، لأول مرة ترى سحراً أمام عيناها.

ينظر لها "شيرو" بسعادة، وكأنه أب يرى سعادة طفلته، أمام عيناه وقد رضي عن مجهوده الذي بذله.

- بعد لحظات يمكنكِ سماع صوت "ابنة القمر" ... هنا أفضل مكان قد يحمل النسيم الصوت له.

أغمضت عيناها والنسيم يهب على خصلات شعرها، تهتز برفق والقلق قد تلاشى وكأنه لم يكن، وكأنما خلقا ليصبحا معاً، وكأن القدر يقودهما للقاء.

بعد عودتهما تغيرت النظرات في عيناهما، لم يعد يجب أن يخفيا ما يشعران به، لم يعد البوح حلماً لن يحدث، بل باتا على شفا البقاء سويا.

- لونا ... ان لم تمانعي سأحاول أن يكون زواجنا في غضون شهر من الآن ... سأعد كل شيء لأجلكِ ... بشكل يليق بكِ محبوبتي.

- إذا سأنتظرك ... وأعدك أن أكون زوجة صالحة لأجلك ... أعدك أن أكون عند ظنك دائما.

- يكفيني وجودكِ بسعادة ... هذا فقط يكفيني.

" أتيتكِ مجروراً من قلبي ... وقلبكِ قد بات لي مسكناً"

" سعيد ... ربما، ينتابني شعور غريب، ليس كما عهدت السعادة من قبل، شيء ما يدغدغ قلبي، عيناي تبحث عنها وحسب، وابتسامة تشق طريقها على وجهي رغم عني، وأظن أن عقلي لم يعد ملكي أيضاً ... حسناً، أظنني أصبت بالجنون، أعراض كهذه حتما جنون، لمَ لم يخبرني أحد من قبل أن المجانين بهذه السعادة ".

" هل يمكن للحياة أن تعتذر لي، أظنها تفعل، وإلا فلم أرسلته لي، وليس كالجميع، بل شخص يخشى أن يخدشني حتى، أظن أن قلبي راضٍ، حتى وان قاتلنا الحياة سويا، سأقاتل الى جواره وسأضحي لأجله ان أمكن، لا أظن أن أحدهم أخبرني من قبل أن بعد كل المآسي ستحلو الحياة".

مضت عدة أيام منذ خطبتهما، لم يحاول جرها لرذيلة بحجة أنها ستصبح زوجته، بل حافظ عليها حتى من نفسه، يكفيه أنه يروي شوقه برؤيتها، حتى تصبح له، زوجته، امرأته، حبيبته، صاحبته وكل حياته، حينها فقط بمقدوره أن يبعدها عن أعين الجميع ويحفظها لنفسه وحسب.

- لونا ... قد تمت كل الإجراءات تقريباً ... ينقصني شيء واحد وحسب ... لذلك يجب أن أسافر ليومين للعاصمة ... سأطلب موافقة خاصة ورضا والدي ... وحينها لن يكون أمامنا شيء لفعله سوى اقامة حفلنا.

ابتسمت برفق، فكل أفعاله تظهر لهفته، نظراته وحركة يديه المضطربة وكلماته.

- سأطلب منك اذاً الحذر في طريقك ... وفقط عد سالماً.

- سأفعل ... ولن أتأخر، فقط يومان وتجديني أمامكِ أبلغكِ بالبشري.

- اذاً سأقبل بُشراك من الآن.

لم تختلف لقاءاتهما عن المعتاد، فقط بات الكلام بينهما همساً، وكأنهما ليسا بحاجة للكلام ليفهم كل منهما الأخر، والآن فقط أيام تفصلهما عن حفل زفافهما، حين يعلنان للعالم أنهما زوجان، في الضراء قبل السراء، يسند كل منهما الأخر حين يميل، ويواسيان بعضهما حينما تقسو الحياة.

مر اليومان ببطء كما ننتظر شيء على لفهة، وكأن الحلو فقط هو ما يسير على ضربات القلب المتسارعة، أما الشوق والحزن كأنما يقول للأيام "هاتِ ما عندك فأنا هاهنا أقيم".

تحت ستار من النجوم، يعلو صوتها الرنان، يختلط به صوت تخبط الأمواج بصخور الشاطئ، مع نسيم الليل، وتحت أضواء القمر.

دع الليل ينطوي ويخفي المسير.
وضِع في ثنايا الحلم الضرير.

يقطع غناؤها ظهور أحدهم، بمظهر محبب للقلب، يطل ليخطف أنظارها كما اختطف فؤادها.

- سعيدة بعودتك سالماً.
- وأنا سعيد برؤيتكِ من جديد ... لونا ... كيف كان حالكِ.
- إني بخير طالما وجدتك سالماً معافى.

بابتسامة يجيبها، فتلك الرقيقة يوماً بعد يوم تأسر قلبه، ليبلغها أنباء جديدة.

- إذاً ... أعدي نفسكِ ... فغداً تنالين الدلال الذي تستحقيه ... فقط الحياة التي تليق بكِ.
- أي حياة ... أظن أن وجودك وحسب هو ما أريده ... فكما ترى لقد اعتادت يداي العمل بالفعل.
- لا ... يداك لم تخلق للعمل ... بل خلقتِ للدلال.

أي سعادة قد تنال بعد أن تجد رجل يقدرها، رجل يعرف أن امرأته لم تخلق للعمل، بل خلقت من ضلعه ليدللها ويسكن إليها، لتكون عوناً له على مشاقه وعمله.

- فقط صباح الغد سيتغير كل شيء ... أعدكِ.
- فقط كلمة منك تكفيني، لأدرك أن حياتي ستختلف.

افترقا على كلمته، غدا يختلف، غدا تتحقق كل الأماني، وينام كل منهما على فراشه لانتظار الغد، يوم حلو، يوم عاثر، أي يوم قد يلقون لا أحد يدري.

"أتريني إن لم أستطع منحكِ حياة تليق بكِ، ماذا عساي أفعل؟".

تفتح عيناها على وضع جديد، سقف غير مألوف، غرفة واسعة مبهرجة، أثاث مزخرف، ومرآة ضخمة في منتصف الغرفة.

تتحرك "لونا" بحذر تتحسس ما حولها، لتقف في النهاية أمام المرآة تتأمل بها، مع فستان حريري يغطي جسدها، ما حل بها، لليلة كانت لاتزال في غرفتها الضيقة، ولكن ما ان فتحت عينها وكأنها بحياة أخرى، أو بالأحرى حلم.

- آنستي ... هل استيقظتِ؟؟

يأتيها صوت يقطع شرودها، لتدخل فتاة ترتدي ملابس للخدم، فستان أسود بأكمام طويلة مع مِريلة بيضاء، لوهلة تعرفها، ولكنها لم ترها يوماً.

تنتابها أفكار مبعثرة، ذكريات ليست لها، مكان ليس مكانها، وأشخاص لا تعرفهم.

- هذه ليست حياتي.

تنظر لها تلك الفتاة بحيرة، فسيدتها التي تخدمها تتصرف بغرابة، تنهدت "لونا" وتركت الفتاة تكمل عملها، غسلت وجهها، وساعدتها على تغير ثيابها، ومشطت لها شعرها، وكأنها أميرة في أحد الحكايات الخيالية، بفستان لامع ناعم، وبتسريحة شعر لم تعرف كيف فعلتها تلك الصغيرة، وتلك المجوهرات التي لم تفكر يوماً أن تقتنيها.

- هذا حلم ... حتماً حلم.

رافقتها لغرفة الطعام في ذلك القصر الواسع، تتأمل في تفاصيله بهلع؛ فالمكان غريب بطريقة مألوفة، تعلم تفاصيله، غرفه وطرقاته، لكنها حتماً المرة الأولى التي تراه بها.

على طاولة ضخمة ممتلئة بكافة أصناف الطعام والشراب، وكل هذا لشخصين هي وذاك الجالس بالقرب منها.

- أبي.

ابتسم لها، من جديد غريب مألوف، لم تره من قبل لكنها تعرف من قرارة نفسها انه والدها، لكنه ليس والدها كما تذكر، يمكنها بالتأكيد أن تتذكر حياتها وسط العامة، منزلها الصغير الدافئ، وذكرياتها مع والديها كل هذا ليس وهماً.

- صباح الخير.
- صباح الخير صغيرتي ... أرى أنك أصبحتِ هادئة الآن ... من الجيد أنك فهمتِ ما أعنيه ... ذاك الشاب لن يفيدك ... أنتِ تستحقين أفضل الأفضل.

صمتت لوهلة، أي كلام تفهمه، ومن يقصد بالشاب، ماذا يعنيه كلامه، شردت تفكر متي تغير كل شيء، حتى تذكرت كلمات "شيرو".

"فقط صباح الغد سيتغير كل شيء ... أعدكِ"

أهذا ما قصده بالتغيير، لكنها لاتزال لا تفهم ماذا حدث، هذه ليست حياتها، حتى وان تعامل الجميع بغير ذلك، توقفت عن تناول الطعام وهمت بالذهاب.

-اعذرني من فضلك.

أوماً لها موافقاً، لتخرج هي من قاعة الطعام، عبر تلك الممرات، ومروراً بذلك الباب الضخم، نحو الخارج لتقابل حديقة واسعة، تكاد تجزم أنها أوسع من الميدان بوسط المدينة، ذهلت من جمال المكان، فقط عيناها تلتمس كل جميل، حتى قاطعها صوت خشن، صوت وملامح تتذكرهما بالفعل، "داركين" إنه ذاك الفارس التي رأته من قبل مع "شيرو" ولم تكن تعرف اسمه يوماً، بطوله الفارع، وملامحه الجادة، لوهلة شعرت بالأمان، ليست بعيدة عن أعين خطيبها، حتى ولو لم يكن هنا.

- آنستي ... أراكي عازمة على شيء ما.
- نعم ... نعم داركين ... دعنا نتحدث.

انحنى لها وقد ضم يده تجاه صدره.

- كلي آذان صاغية ... كما كنت دوماً.

تجاه موضع بالحديقة توجها، جلست بعد أن قبل "داركين" بالجلوس، بدأت بفرك يديها سويا، من أين تبدأ.

- داركين .... هل تتذكر شيرو.
- لازلت أفعل سيدتي ... هل ترغبين أن أحضره لكِ ... إن كان قد آذاكِ لأرينه أشد العذاب.

انتفضت لفكرة أن فارسه قد يؤذيه يوماً، يبدو أنه حتى هو كما البقية لا يدري.

- لا لا ... شيرو لم يؤذيني يوماً ... فقط أريد الذهاب لرؤيته.

لانت ملامحه قليلاً، وأردف برفق:

- آنستي ... من فضلكِ ... مقابلتكِ لهذا الشاب ستضر بسمعتكِ وحسب، ألا تظنين يوماً أنه طامع بثروتكِ ومكانتكِ ليس إلا.

- ليس كذلك ... إنه شخص جميل ... لا يمكن أن يؤذيني.
- آنستي ... ليس كل جميل غير مؤذٍ ... لطالما وجدت كائنات غاية في الجمال وغاية في السمية في نفس الوقت.
- لم أقصد فقط جمال وجهه ... انه جميل من كل النواحي ... أخلاقه، تعابيره، أسلوبه، كل ما فيه جميل.

صمت "داركين"، فماذا هو فاعل أمام عزم سيدته.

- فقط أريد مقابلته ... ألا يمكنك فقط أن ترافقني.

"إن كانت الحياة عازمة على فراقنا، فلم جمعتنا، وكأنها ترفعنا عاليا في السماء، لترمينا أرضاً، قد تتهشم قلوبنا ... لكن ألا يمكننا فقط مواصلة المسير".

"ماذا إن كانت حياتي حياتكِ؛ وخاصتكِ ملكي، أتقبلين ... وإن لم تفعلي أظن أني سأتحمل كوني مذنباً في عيناكِ؛ على أن أتركاكِ وسط هذه الغابة".

يصحبها لوجهتها، نحو مركز مدينة "سورا"، لتقف أمام ذاك الباب الذي ألفته، خلفه قد اعتادت هي و"شيرو" اللقاء، في تلك الغرفة التي خصصت لهما، تتردد في فتح الباب، ماذا ان لم يكن هناك، ماذا ان كان وهماً جميل، أو أن عقلها قد أصابه الجنون.

برفق تفتح باب الغرفة، ليظهر الى جوار الشرفة بطلته المحببة، رغم قدم الثوب الذي يرتديه، الا أنه لا يزال بنفس وسامته، من الذي قد قال ان الملابس هي من تصنع جمال الشخص.

امتلأت عيناها بالدموع حينما استقبلها بابتسامته المعتادة، لتتقدم تجاهه وتلكمه.

- فقط ما الذي فعلته.

ضحك بخفة وهو يضع كفه موضع ضربتها.

- لم يكن هذا هو الاستقبال الذي توقعته.

-وهل توقعت عناقاً مثلاً.

أجابته والدموع تتخلل ضحكاتها، وكأنهما من فرحتهما أصابهما السكر.

- لم أتوقع أن تعطيني حياة ليست لي بوعدك... ماذا لو لم تناسبني.

- بالتأكيد ستناسبكِ... ان يداكِ لم تخلق سوى للدلال... ولو كنا قد تزوجنا لكنت أهديتك دلالاً حتى أفسدكِ عن هذه الحياة.

- وماذا عنك ... أليست هذه حياتك... بهذه السهولة تتخلى عنها.

- أنا رجل... خلقت لأعمل وأسعى في هذه الحياة... كما وأحفظكِ عن شرها ما استطعت.

- لكن ماذا عن والدك... رغم أن سعادة قد اعترتني لحصولي على أبٍ مجدداً... لكن كيف يمكنني قبول ما ليس لي.

- لأكن فداكِ أنا وحياتي... لتصبحي سعيدة دوماً.

- وماذا عنك.

- سعادتكِ هي سعادتي.

صمتت، فأي كلام يقال من بعده، حتى وان كان عوضاً لها عن فقدانها والديها وقسوة الحياة عليها، فقط كيف تقبل وهو من يشقى بدلاً عنها.

- كيف فعلت هذا... كيف عبثت بالجميع هكذا.

- أنسيتي أنني ساحر... لربما كان الأمر مرهقاً لكنه يستحق... اذاً... هل قبلتي بحياتي هدية لكِ.

رمقته بنظرة ربما سعادة، ألم، فخر وقلق، سعادة لحصولها على رجل مثله، وألم لأنه استغنى عن حياته لأجل راحتها، فخر لوجود رجل مثله، وقلق عليه، هل يا ترى يقدر على مواجهته للحياة بعد حياة الدلال التي قد عاشها حتى الآن.

- ما دمتي راضية... فقد حان الوقت لأقرأ أنا لكِ.

- كللي آذان صاغية.

تبادلا الأدوار هذه المرة، هو يقرأ وهي تستمع، هو يسعى وهي تنتظر، وكلاهما في سعادة لوجود الآخر.

- سأقوم بإقناع أبي بزواجنا... أقصد والدك... وسآتي من جديد بأخبار سعيدة هذه المرة.

- لن أنال لكمة مجدداً أليس كذلك.

وداع بابتسامات، وعود لربما تتحقق، وأيام تمر على كلاهما بحلوها ومرها، هل ربما تخضع الحياة لمحاولتهما، أم ربما لم تكفيها محاولات.

على طاولة جمعت "لونا" ومن أصبح والدها، بقلق ينتابها من ردة فعله.

- أبي ... أريد أن أحادثك بشأن ما.

- أسمعكِ يا بنيتي... لا تخشي شيء.

- انه بشأن شيرو أبي... من فضلك أنت فقط لا تعرفه وما فعله لأجلي.

- وما الذي أحتاج لمعرفته... هل تظنين أني أرغب بتعاستكِ وحسب... أنا فقط أخشى عليك الانكسار... الرجل هو صاحب المسؤولية في منزله... هل لربما ينوي العيش من أموالكِ... أم أنه قد يأخذكِ للعيش معه... بنيتي ان عاش معكِ لن يقوى على مواجهة النبلاء ولا ان يعينكِ حينما تخلفيني... سيصبح في خلاف دائم معكِ لأنه لم يشبع قوامته ولن تسعدي... وان عشت انتِ معه هل ستقوين على الحياة معه... دون الترف التي كنتِ فيه طوال حياتكِ... ستشقين معه حتماً.

بكى داخلها، رغم صحة كلماته، فالأموال والترف الذي تحيا به هو ملك له، ولكن والده لا يدري، لا أحد يدري سواهما.

- من فضلك أبي... أدرك تماما مدى صحة كلامك... لكن من أجلي... أنا فقط من أعرفه.

تنهد وأردف على إصرارها:

- لأجلكِ فقط يا طفلتي... وان كنت أشك أنه يستحقكِ... سأقابله وأحكم بنفسي... سعيدة إذاً.

سعدت وكأنها طفل نال حلواه بعد طول انتظار، فيبتسم ويكمل:

- بعد اسبوع من الآن سأقابله... لكني لن أدعه يأخذكِ بسهولة.

- بالطبع، بالطبع أبي.

طالتها السعادة وملئت قلبها، هي تثق تمام الثقة أن "شيرو" سينال ثقته، في النهاية هو ابنه، وهو أدرى بأبيه.

تمر الأيام ببطيء أمام انتظارها، وتسوء الأجواء مما يزيد قلقها عليه، وكأن الطبيعة تثور على أمر ما، وكأن المباني توشك على مغادرة مكانها رعباً، فما الحل حينما تقف الحياة عائق أمام النجاة.

في ليلة اكتمل فيها القمر، ليرمي بضوئه على أرجاء المدينة، عصفت الرياح حتى تكاد تقتلع المباني والأشجار، وهاجت أمواج البحر لربما تبتلع المدينة بمن فيها، شيء ما تعترض عليه الطبيعة، شيء فقط ترفضه، لا أحد يعلم ما هو؛ والجميع يدفع الثمن.

تهتز أركان الغرفة التي تحوي "لونا"، والخوف يعتريها على "شيرو"، تعرف جيداً المنزل الذي يسكنه الآن، وكيف تتسرب الأمطار من سقفه، والبرودة التي تحيط بالمكان إثر ريح خفيفة.
"لربما قد هدم المنزل بالفعل من هذه العاصفة... فكيف هو الآن"

يفر الجميع من منازلهم؛ علهم يحتمون بأحد الكهوف القريبة، لكن هل لها أن تفر من قدرها المحتم، حينما يقودها قلبها عكس الناس، وتفسح لها الريح المسير نحو مصيرها، وكأنها سكين يخترق بنعومة عنق أحدهم.

عند مكانها المألوف، حيث تلتقي المدينة مع أمواج البحر، هدأت الرياح، وسكنت الأمواج، وكأنها في انتظار شيء ما، بعض من قطرات المطر غطت وجهها، وبأنفاس لاهثة تقف "لونا" وقد ضمت يدها تجاه صدرها، وكأن مصيرها المكتوب قد قادها لمكانها.

يعلو صوتها بألحانها، شيء ما يخبرها أن هذا ما عليها فعله، فقط وكأن الجميع في انتظار سماع صوتها.

دع الليل ينطوي ويخفي المسير.
وضع في ثنايا الحلم الضرير.
دع الغيث يهطل على القلب الصغير.

قطع غناءها من جديد، بظهور لم تتوقعه يوماً، من قلب الماء تخرج فتاة آية في الجمال، بملامح ساحرة، فاتنة للعقل والقلب، وتجاه "لونا" يحملها الماء بخفة، وحين صارت بمقربة لها، همست في أذنها:

- رافقيني... وكوني أميرة لنا.

أومأت "لونا" برأسها، وكأنها مسحورة، وعيناها معلقة بعينا تلك الفاتنة؛ التي مدت لها يدها لترافقها لمصيرها، حملتهما المياه حتى باتا في قلب البحر، يداً بيد تسحبها، وتلك الصغيرة غير مدركة لما ستواجه، منبهرة بجمال المكان، وكأنه عالم من خيال لا تراه في القصص، حتى في الخيال قد لا تلقاه.

نحو القاع حيث يظهر أمامهم شجرة ضخمة، فروعها وأوراقها تغطي المكان، تقفان في مقابلتها، وفور أن تمتد يد "لونا" يمسك بها شيء ما، كما وتقبل تلك الفتاة حتى تلامس تلك الشجرة بيدها وجبهتها.

"حينما لمست تلك الشجرة وكأن سحراً ما قد أصابني... لم أتمكن من الحراك كما وشعرت وكأن نبضات قلبي ستخترق صدري لتخرج... شعور غريب قد احتلني... شعور وكأني أتلاشى... وكأن هذه الشجرة تأخذ مني دمي ودموعي وروحي وتعطيها لتلك الفتاة"

نظرت الفتاة تجاهها، وبينما قلبها ينتفض ألماً، مالت تجاهها وبرفق مسحت على رأسها، وهمست:

- عذراً أميرتنا المقبلة... أعلم أنكِ تتألمين... لكننا بحاجتكِ.

مع آخر كلماتها انتهت نبضات قلب "لونا"، آخر عهدها بالحياة ألم رحيلها، والمياه من حولها، بعيدة عن الجميع، في قلب البحر تقبع حتى يتآكل جسدها وتفنى من الحياة.

فتحت عيني على ذاك الجسد الواهن، وقد لفظ آخر أنفاسه المتألمة، من المؤسف أن يموت هذا الجمال.

من أنا؟ ما أعرفه أني أميرة لشعب البحر، لكن هناك ما يخبرني أني غير ذلك أو أكثر، لكن حتى أعلم ها أنا على قيد الحياة، تقريباً!!

ظننت أن السطح مضطرب، لذا حملتني المياه تجاهه، بالقرب من المدينة تمكنت من رؤية أحدهم، بشعر بني قد بعثرته الريح، وعينان كموج البحر فاتنة مضطربة، شيء ما يخبرني أني أعرف هاتين العينين، لكن من أو متى لا أعلم.

حاول ذاك الشاب القفز في مياه البحر، حينها وجدت قلبي وقد أصابه الفزع، فصرخت به:

- لا تفعل... ستغرق... لن تنجو.

لكن هيهات، قد قفز وكأنه لم يسمع صرخاتي، وفقط كلمة "لن تنجو" من علقت بعقلي، لا أدري لما أنا خائفة من ألا ينجو، هل أعرفه؟ لا أظن.

تبعته وها هو يسبح بمهارة، يخترق الماء كسهم مدرك لوجهته، حتى توجه لتلك الصغيرة التي فارقت الحياة، رأيته يحملها ويتوجه نحو السطح.

- على الأقل سيجتمعان معاً.

رأيته يلتفت بعد كلماتي وكأنه قد سمعها، وأنا وكأني أعرف حكايتهما، حتى خرجا من المياه، ظللت أراقبهما، رأيته وجسده يرتجف، وبين يديه جسد تلك الصغيرة، جسد خاوٍ من الحياة، يتحسس نبضها وأنفاسها بلا أمل، أمسك بشعره وقد امتعض وجهه، حتى خارت قواه.

رأيته يتحسس وجهها، والدموع قد عرفت مسارها من عيناه، ضم جسدها الخاوي تجاه صدره وسمعته، سمعته وقد امتزج صوته بألمه وشهقاته.

- آسف، آسف، آسف... إني مخطئ... من فضلكِ لا ترحلي عني... من أجلي سامحيني وعودي... أرجوكِ... عودي أو خذيني معكِ ... حبيبتي ... لونا ... سامحيني.

سمعت أسفه، آهاته وصراخه، يبدو أنهما زوجين فرقتهما الحياة، لكن لماذا يعتصر قلبي ألماً، لربما شفقة بما حل بهما، وحزن عليهما، فلماذا أنا أيضاً أبكي.

في كل ليلة بعد أن ينسدل الظلام، ويعلو صخب المدينة، حينما يرتفع القمر عاليا لينير بجماله المكان، أصبحت أخرج من مياه البحر، عند الشاطئ حيث صنع ذلك الشاب لحبيبته تابوتاً من الزجاج، وضع به الأزهار، وألبسها ثوب أبيض يغطي كامل جسدها، وغلفه بالسحر حتى لا تذبل جثتها، فباتت وكأنها دمية نائمة في صندوقها الزجاجي، تنتظر من يوقظها.

أتأمل تلك الصغيرة بثوبها الباهي، لديها ملامح مألوفة، كشخص عاشرته لأعوام وأعوام، لكني فقط لا أتذكرها، حينها أفترش التراب الى جوارها ليلاً؛ بعد رحيله كل يوم من زيارتها، أغني أغنية لا أعرفها لكنها قابعة في ذهني، من أين لي بها لا أدري، فقط أغنيها.

دع الليل ينطوي ويخفي المسير..
وضع في ثنايا الحلم الضرير..
دع الغيث يهطل على القلب الصغير..
وانس ان الكون بات قاسٍ مرير..
صغيري داو الفؤاد الكسير..
كل الأماني حتماً تصير..

في إحدى الليالي وبينما أنا أغني إلى جوارها، أقبل عليّ ذلك الشاب، بملامح زابلة وأعين شبه ميتة، وكأنه هو الميت لا حبيبته، حينها فقط راودني تلك الكلمة "لن تنجو"، أيقنت حينها ما معناها، هو ميت على قيد الحياة؛ بعد أن ماتت من كانت سببا لحياته.

حين هممت بالرحيل استوقفني.

- من أنتِ؟

لم أجبه، من أين له أد يعرف شعب البحر ليعرفني.

- من أنتِ أجيبيني... لماذا تزورين لونا بعد رحيلي.

مجدداً لم أجبه، فحتى أنا لا أدرى سبب حضوري كل ليلة.

- هل تعرفينها... صديقتها أو حتى قريبة لها.
- لا... لا أعرفها... ولا أعرف سبب مجيئي لهنا... ولا سبب حزني عليكما.

صمت وعلامات دهشة تعتري وجهه، تقدم تجاهي ماداً يده راغباً في لمس وجهي، لأنتفض أنا للوراء.

- أعتذر لكن صوتكِ ... صوتكِ كصوتها تماماً ... نفس الصوت الذي سحرني.
- وأنا أيضاً... كلما نظرت لها شعرت وكأنني أنظر لشخص أعرفه... فقط أنا من لا أعلم.

صمت لبرهة ثم أردف:

- هل أنت من شعب البحر.

لا أدري من أين له أن يعرف شعبنا، لكني أومأت برأسي، لأجده وقد سقط أرضاً على ركبتاه والدموع تنسال من عيناه.

- لا يمكن... لا، لا يمكن... لماذا هي... فقط لماذا.
- ما الذي حدث.

نظر لي بحزن وأمل ربما، ليجيبني:

- كما اختطف رجال الريح ابنة القمر سابقاً لجعلها أميرة لهم ... أنتم يا شعب البحر اختطفتم لونا ... لونا حبيبتي... فتاتي الرقيقة التي قست عليها الحياة... حينما أردت أن أكون عوناً لها وعوضاً عما رأته... لكن.

- لكن ماذا.

ابتسم بحزن، وأكمل:

- لكن يبدو أنكم اختطفتم روحها وحسب... صوتكِ... ذكرياتكِ الضائعة... حزنكِ الغير مبرر... كلها ملك لها... صوتها وذكرياتها قد باتت ملك لكِ... وأنا خسرتها.

- لكن ما أعرفه هو أني أميرة لشعب البحر... لم أعرف غير ذاك حينما فتحت عيناي.

- أعرف... كيف لكِ أن تستعيدي ذكرياتكِ... حينها فقط تتركيهم لتستعيدي حياتكِ الخاصة.

لا أفهم لم قد أترك شعبي، ولكني فقط فهمت لماذا ملامحها مألوفة، ولماذا أشعر بالحزن، هممت بالرحيل، لكنه استوقفني.

- هل سترحلين.
- وهل بيدي شيء غير الرحيل... إن لم أفعل سيجدون طريقة لإعادتي.
- لكن.

اقتضم كلماته، لأردف بدلاً منه:

- أظنها تريدك أن تكون بخير... أن تحيا حياتك حتى وإن لم تكن هي به... هذا ما أشعر به حتى وإن لم أكن أتذكرك.

أنهيت كلماتي بابتسامة له ورحلت لأعماق البحر، لم تنته عادتي بزيارة قبر "لونا" والغناء لها، كما لم يكف هو بدوره عن زيارتها، بوجهه الشاحب وجسده الذي بات نحيلاً كما لم أعهده من قبل.

وبأحد الليالي حينما اقتربت من الشاطئ وجدته، جالساً إلى جوار قبرها، بجسد بارد قد فارق الحياة.

"قد وعدها بالبقاء إلى جوارها، وها هو قد أوفى بوعده".